ترجمات | قسم الدراسات الدينية | 06 سبتمبر 2017

المفهوم المبهم للمقـدس عند العـرب وفي الإســلام

يوسف شلحد

ترجمة: محمد اسموني

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017

المفهوم المبهم للمقدس عند العرب وفي الإسلام[1]

بقلم: **يوسف شلحد**[2]
Joseph Chelhod

تقديم وترجمة: **محمد اسموني**

1- ثمة في الغالب موضع لتمييز الوقائع الإسلامية الخاصة عن تلك المأخوذة من إثنولوجيا العالم العربي. لكن الإسلام القائم على أساس أنصاف الرحل، أدان التأثير الثقافي للعروبة ما قبل إسلامية، بصورة أن مفاهيم عامة كالمقدس، والطاهر والمدنس، والحرام...لا تفهم كلية إلا على ضوء البنى التحتية للعرب، نوضح ختاما أننا نحتفظ بالتسمية «عرب» للساكنة الأصلية لشبه الجزيرة العربية.

2- Chelhod Joseph. La notion ambiguë du sacré chez les Arabes et dans l'Islam. In: Revue de l'histoire des rel - gions, tome 159, n°1, 1961. pp. 67-79.

تحرك العربي المرتحل قبل الإسلام - على غرار الإنسان الأولي - في فضاء مفعم بالقداسة، والمستقر أيضا اعتقد أنه محاط بقوة استسلم لها، فرآها في كل مكان: في رمال الصحراء المتحركة، في وحشة الليل، في الدم المراق الذي نادى بالثأر؛ فبعض العيون والأشجار كانت مسكونة بالأرواح الغريبة، وتحديدا الجن، القادرة على إثارة ظواهر مدهشة. هذه المعتقدات وغيرها في نظر الكثيرين دائما حية ومثيرة، وللحماية منها، أحاط العربي نفسه بشبكة من المحرمات، مكنته من التحرك في فضاء محايد عمليا. ولما كانت هذه القوة قادرة على إنتاج أشياء خارقة، وتوزيع البركة[1]، وإرباك العدو، سعى العربي إلى استعمالها لغايات شخصية، تضرع إليها إذن، خصها بالقرابين، وحين شعر أنه في موقع قوة، حاول معاكستها عبر طقوس خاصة، يشهد العدد المدهش من الأضاحي التي وهبها إياها على المكانة التي احتلتها في وجوده.

تَثبُط همتنا بمجرد محاولتنا اختراق أسرار هذه القوة بفعل جسارة المشروع، وطبيعة الأرواح والآلهة ذاتها، وكل محاولة للتفسير لا يمكن أن تنفلت من إثارة قضايا ميتافيزيقية. فبدل البحث في تحديد جوهر المقدس أو معرفة الأصول، خمن الإثنولوجيون والسوسيولوجيون في وصفه بكل حذر، استنادا على تجلياته الخارجية، عبر الاستعدادات التي يثيرها لدى المعتقدين. رغم هذا التحفظ الواعي، لم يُعْطَ أي تعريف مقنع للمقدس، يقول روجيه كايوا R. Caillois: «في عمق المقدس عموما، الشيء الوحيد الذي يمكن إثباته صِحّةً، ومُتضمنٌ في تعريف اللفظ نفسه: هو تعارضه مع المدنس profane. ما إن نعزم على توضيح طبيعة ونوعية هذا التعارض، حتى نصطدم بأكبر العوائق، حتى وإن كانت أولية، فليس ثمة صيغة تطبيقية، لتعقد متاهات الأحداث[2]».

حالما نحاول «إضاءة تشعب المتاهة»، نفتحها وَقْتِيّاً على عقدة لا حل لها، فحياة إنسان كلها بالكاد كافية فعلا لمعرفة ظواهر ديانة واحدة بشكل معمق. يشتغل المهتم بالمقارنة عامة على وثائق من مستوىً ثانٍ، بل ثالثٍ، يجمعها معزولةً عن سياقها، مصنفة ومنسية في ملف، محتفظ بها حتى لحظة الاقتضاء، لا رابطا واقعيا بينها، إلا أطروحة الكاتب التي يدافع عنها، وهي وجهة نظر ذاتية للأحداث. فالمحمل الفارغ عموما[3]، والمحلى بفخامة، يبعثه الأمراء المسلمون إلى مكة في موسم الحج، ترميزا لحضورهم وإظهارا لسلطتهم، بات عند بعض الكتاب أصحاب المنهج المقارن «نوعا من صندوق الأسرار» يحمله مُسلِمو إفريقيا معهم

1 عطاء رباني، وبالأحرى تأثير خير للقداسة.

2 R. Caillois, L'homme et le sacré, p. 11, Leroux, Paris, 1939.

3 يقول كاتب مسلم: «لا أحد في المحمل، لأنه لا يمكن الجلوس مكان الملك» أورده:

Gaudfory-Demombynes, Le pèlerinage à la Mekke, P 160, Paris, 1923.

لكن المحمل يمكن أن يحوي كتبا وأيضا هدايا، يراجع:

Encyclopédie de l'Islam, T.III, P,.128.

Gaudfory-Demombynes, ibid. PP, 158 sqq.

على صورة تميمة[4]. ولما كان تركيب ملف مشروعا عمليا لا نهاية له، فمن العادة الاحتفاظ بالوقائع الأكثر ظهورا على وجه الخصوص، فينفلت جزء كبير من الإشكالية عن السبر. لا جرم أن المقارنة هي الهدف الذي ينبغي أن تتضافر حياله الجهود، بيد أنه في الحالة الراهنة لمعارفنا، يبدو العمل على مونوغرافيات أكثر نضجا وحصافة، فبدل أن نجازف باختيار إشكالات سبق مناقشتها، من المفيد الوقوف على كيفية تمثل العرب المسلمين للمقدس، وتأثيرات ذلك.

****

يهيمن على علاقات المسلمين مع العالم الخارجي التمييز بين ما هو حرام، أي محظور Illicite، وممنوع Interdit، ومَنْهيّ عنه Défendu من جهة، وما هو حلال، أي جائز Licite، ومباح Permis، وغير مَنْهيّ عنه Non Prohibé من جهة ثانية، فالقول عن شخص أنه يمزج الحلال بالحرام، هو اتهام بالجهل التام بأمور الدين.

ما الذي تعنيه تحديدا كلمة حرام؟ هل من حقنا أن نجعل من هذا اللفظ مرادفا للمقدس، وللولي أو للديني؟ لاستبعاد كل تفسير تعسفي، نسائل أولا القرآن، فالجدر **(ح ر م)** جارٍ استعماله نحو 80 مرة، تارة كأفعال (حَرُمَ ومشتقاتها)، وتارة على هيأة أسماء (حَرام، حُرُمات) ونعوت (حُرُمٌ). والمعنى الذي يمكن أن نحتفظ به عموما هو شيء محظور وممنوع، وغير مباح، ولهذا السبب وضع في تعارض شبه دائم مع الجدر **(ح ل ل)**، الذي يستعمله القرآن بشأن ثلاث فئات للكائنات والمحسوسات، الأولى نوعية غير مطهرة Impur، والله أعلنها محظورات، (يُحَرَّمُ) لحم الميتة، والدم، ولحم الخنزير (سورة البقرة، الآية 172) والخمر (سورة المائدة، الآية 92). الفئة الثانية بالمقابل مدنسة Profane لكنها تغدو محظورة «على المؤمنين» في شروط معينة: حُرمت عليهم أمهاتهم، وبناتهم، وأخواتهم، (سورة النساء، الآية 23) وما أُهل لغير الله به (سورة المائدة، الآية4). تهم الفئة الثالثة أخيرا الكائنات والمحسوسات في الطبيعة، والتي سنعود إليها لاحقا؛ فالنهي المرتبط بها ذو نوعية خاصة، فهو مطلق فعلا في الحالتين الأوليتين، إذ لا يمكن أكل لحم الخنزير، أو شرب الدم أو الخمر إلا لضرورة قهرية. يمكن في الفئة الثالثة، ويجب أن يُرفع المنع وقتيا بفضل طقوس معينة، هكذا فالمَقْدِس ومسجد مكة حرام، ممنوعان على المدنسات، ومعزولان عن بقية العالم، بيد أنها عزلة مؤقتة، مادام كل مسلم بموجب تعليمات معينة يُدْعى لدخولها. يبقى إذن تحديد علة هذا الفصل عن العالم، وهو ما توضحه الآية: «إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذه الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا» ويضيف القرآن «وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ» (سورة

4 Van der Leeuw, La religion dans son essence et ses manifestations, p. 24, Payot, Paris, 1948.

فالكاتب نقل «محمل» وأحال على كتاب:

H. C. Armstrong, Lord of Arabia, p. 200, des éditions Albatros, Leipzig, 1938

والحال أن هذا الأخير يصف موقف الوهابيين الصارمين حيال ما يعتبرونه مظاهر وثنية!

النمل، الآية 93)، إنها فكرة الانتماء الخاص للألوهية، التي تَسِمُ هذه الفئة الثالثة من الحرام، إذ تنفصل الكائنات والأشياء عن العالم المدنس بانتمائها إلى الله، ويصبح الحرام هنا مرادفا للطاهر والمقدس. دونما شك يمكن الرد في الإسلام، أن الله هو السيد المطلق للكون، يتوقف الكل على إرادته وقدرته، غير أن هذا التملك دون قسمة ليس على صلة بفكرة الإسقاط، بل بحضور إلهي، مغاير للمُثولية Immanence، أو إذا شئنا لِنَذرٍ يُتَرْجَم بانتماء خاص للألوهية، فالحاج بدخوله إلى الحرم المكي في الواقع، ينذر نفسه لله، بشكل لا يسمح له قبل التحلل من الإحرام - الذي يمهد للرجوع للحياة المدنسة - إلا باسترجاع المبايع، والتخلص من الحشرات المؤذية. خلافا للفئة الأولى، فالكائنات والأشياء هنا إذن طاهرة، ولكن طهارة مكتسبة أو وقتية تقريبا، مختلفة عن القداسة التي سنعود إليها لاحقا.

مهما كانت طبيعة العوامل التي يظهر فيها الحرام إذن، فإنه يفرض على الإنسان قيودا في الاستعمال الحر للأشياء، إذ يظهر كقوة خارقة لا يمكن لمسها بلا عقاب، وبسبب هذه النقطة المشتركة بين المقدس والنجس، نفترض أنه لا يتعلق الأمر في الأصل إلا بالمفهوم الواحد نفسه. «إن المعنى الأقدم للقداسة - كتب ردولف سموند R. Simend بعد ويليام روبرستون سميث W. R. Smith - ينشأ عن قرابتها الجوهرية بالنجاسة، حين نبعد شيء، لا ندري غالبا هل نعتبره طاهرا أم مدنسا.[5]» والحال أن لبسا معينا، كما هو الأمر بالنسبة إلى المحظور Tabou وللمقدس لا يبدو لنا مُبَرَّرا قطعا[6]. طالما وضحنا جيدا التشبيهات الخارجية إلى حد نسيان التناقضات العميقة، والحال أن نجاسة المشركين سبب إبعادهم عن مجال القداسة (سورة التوبة، الآية 28*). يوضع الطاهر في القرآن غالبا مقابل النجس «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا» (سورة الأحزاب، الآية 33)، و يرتبط بالسماء، وينتمي للقداسة (سورة عبس، الآية 14*، سورة الواقعة، الآية 82**، سورة الإنسان، الآية 21***)[7]. والرجس L'Impur في ارتباط بالشيطان (المائدة، الآية 92****). يمتد هذا التقابل نسبيا إلى الأطعمة أيضا: «وَيُحِلُّ لَهُمُ [الحواريون] الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ» (سورة الأعراف، الآية 157). اِفترضنا سلفا وجود تمييز بسيط مستوحى عموما من العُرف، بين ما هو طيب، وما هو مكروه، لكن استعمال الجذرين: (ح ل ل) و(ح رم) يسيران في اتجاه تعارض لا يقهر بين صنفين من الأطعمة: الطاهرة والنجسة. ولرسم هذا التعارض جيدا يتوسل القرآن بتقابلين: الطيبات ≠ الخبائث، والخبيث في الواقع هو القبيح والحقير والدنيء، فالأخبثان في الحديث الأكثر

---

5 أورده: Lagrange, Études sur les religions sémitiques, p. Ill, Paris, 1905

6 حرصا على تخفيف النص، لم ندرج دراسة نقدية لأنواع المواقف حول المحظور Tabou، وقد يكون ذلك موضوع مقالة أخرى.

*«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا»

7*«مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ»

**«لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ »

***«وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا»

****«رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ»

كراهة، إشارة إلى البول والغائط، والشيطان هو الخبيث بامتياز. بالمقابل الطيب أساسا هو الحسن والجائز، ولكن الطاهر أيضا: فـ «الصعيد الطاهر» الذي يمكن التطهر به عند غياب الماء، ليس سوى رملٍ نقيٍّ، إذن فالتمييز بين الخبيث والطيب يؤول في الأخير إلى تعارض بين الطاهر والنجس.

كيف تصبح التصورات العربية للطاهر والنجس في ظل هذه الشروط؟ إن الطهارة - عكس المعتقد السائد - ليست مرادفة للنظافة بالضرورة، والنجاسة ليست القذارة دائما، قد يكون الكحول طاهرا كيميائيا، لكنه يبقى محرما من الناحية الشرعية، فالحيوان النجس في جوهره أيضا لا يمكن لأي عمل للتطهير أو التزكية أن يغير من طبيعته. وبالمقابل، فالحجاج المغطون بالغبار والعرق، وأحيانا بالحشرات الطفيلية، هم في حالة قداسة (إحرام)، تسمح لهم باستكمال الطقوس الأكثر قداسة، فالجسد نجس ليس بسبب ما يلحقه من مواد غريبة، ولكن بالأحرى بفعل مبدأ خطير ملازم لأصناف من الموجودات والأشياء، تغير الطبيعة. ندرك بيسر أن نجاسة الخمر ليست بسبب العنب، لكن بالأحرى بفعل العنصر الكحولي الذي يضاف إلى عصيره مع التخمير. لا تنشأ نجاسة النار أيضا عن الخشب، ولكن بفعل التوهج الذي هو من طبيعة الشياطين نفسها. تعتبر الذبيحة نجسة وإن كانت نظيفة، إذا لم تراع الشروط الدينية، وتعتبر صالحة للاستهلاك حتى وإن كانت قذرة ومريضة إذا روعيت الشروط المذكورة عند الذبح. ليس النجس بالضرورة كل ما هو قذر أو مشكوك في نظافته أو حتى مكروها، ولكن ما نشك في حمله قوة خطيرة وشريرة، دائمة أحيانا ووقتية في أخرى. قد تكون في الحالة الأولى، إما ملازمة لطبيعة الموجودات والأشياء (خنزير، بول، غائط، إلخ)، أو عَرَضِية ناجمة عن تغير في الطبيعة (تحول عصير العنب إلى خمر، جيفة)، هنا يتعلق الأمر بجوهر النجاسة نفسها التي يستحيل تطهيرها. في الحالة الثانية، فإن الاتصال بالنجاسة هو الذي يُعْدي الموجودات والأشياء (أشخاص في حالة نجاسة جنسية، أشياء قذرة، إلخ)، وقتئذ تكون تدابير التطهير الاعتيادية فعالة.

أما فيما يتعلق بالطهارة، فتعريفها أكثر صعوبة، إذ يتعلق الأمر بمفهوم غاية في التجريد، يستحيل تجسيده كالنجاسة، إذ تدل في معناها الواسع على غياب كل عنصر نجس للأشياء والموجودات. وفي الاصطلاح الإسلامي تعني الطهارة مجموعة من الطقوس بفضلها نتخلص من القاذورات، التي تعد معيقات لأنشطة الحياة الدينية. فبالمعنى ذاته، نقول عن الماء المشروب، أو عن بهيمة مستهلكة إنها طاهرة. وتقودنا الطهارة - حيث يبعد كل عنصر خطير - إلى مجال المدنس الحلال، حيث لا شيء ممنوع: إنه المظهر السالب للطهارة. تملك هذه الأخيرة أيضا مضمونا موجبا: فهي ليست نفيا للطهارة فحسب، ولكن نقيضها أيضا. وبعيدا عن الدلالة على غياب كل الموجودات والأشياء الخطرة، فالمعنى الدقيق للطهارة متضمن فيها، لكن عوض أن تكون من طبيعة شريرة على غرار تلك التي للنجاسة، فهي تكون بالأحرى متسامحة وسليمة القصد حيال الإنسان عموما. وتعد الطهارة في تجلياتها الأكثر سموا مرادفة للقداسة، «إِنِّي أَنَا رَبُّكَ (يقول الله لموسى) فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى» (سورة طه، الآية 13).

إن هذا التصور الإيجابي للطهارة في مفهومها الراقي، يبدو متأخرا، لأنه يفترض وجود سلطة إلهية أعلى، وخيرة أساسا، تجتمع فيها كل الكمالات، أو فإنه لا يمكن اعتبار مختلف آلهة العرب قبل الإسلام ممثلة للقداسة الحقة، علاوة على ذلك؛ فالجدر (ق د س) استعماله نادر في القرآن الكريم (10 مرات)، ومستعار بالأحرى من اليهودية -الآرامية[8].

على الرغم من هذا التعارض الذي لا يقهر بين الطاهر والنجس يستعمل القرآن نفس الجدر (ح ر م) للتعبير عن الأخطار التي يمثلانها بالنسبة إلى الكائن المدنس، فالحرام يضمهما معا دون أن يمزج بينهما، لأن الأمر بالنسبة إلى المؤمن يتعلق بالمكوث بعيدا عن هذه القوى الخطيرة، وعدم محاذاتها إلا بعد طقوس واحتياطات للاستعمال. ولذات الأسباب، فإن مجال القداسة معزول عن بقية العالم أيضا، وهذه العزلة تترْجَمُ بنفس الكلمة التي تخص النجس والجهنمي. فالتعريف الذي يبدو أكثر مناسبة لهذا التوظيف الخاص للحرام، هو المقدس الطاهر، والرباني، أو الذي يحوي نفسا ربانيا، أو حضورا للربوبية، في ارتباط معها، أو يملكها بشكل خاص، من هنا جاءت فكرة المكان المقدس، حُرُمٌ، أشياء ممنوعة، أشخاص وأزمنة وأشياء مقدسة.

أما بالنسبة إلى الحلال، فهو تحديدا غير المحظور، كل ما لا يمثل أي خطر على الإنسان، وحتى يُسمح لهذا الأخير باختيار حر للأشياء المتموضعة خارج مجاله المباح، يلزمه - متى كان الأمر ممكنا - تخليصها من عناصرها الخطيرة، التي يمكن أن تكون طاهرة أو نجسة. لهذا الغرض، يلجأ الإنسان إلى طقوس معلومة للتطهير وإبطال القداسة. في هذه الحالة الأخيرة، يمكن أن تتعقد السيرورة بغرابة، إذ لا يتعلق الأمر بتجريد كائن أو شيء من الخصائص المقدسة الوَقْتية (حاج في وضع إحرام)، ولكن أيضا باسترداد ما هو ملك خاص للربوبية. يمكن إذن أن يترجم التدنيس Désacralisation بالهدم Destruction، وهو أيضا مبدأ الضحية التي تقوم على تحرير العنصر الخطير، وإرجاعه إلى الألوهية، سواء في النهاية - وهذا يكون متأخرا - عبر أداء الزكاة للسلطات الدينية، أو بدلا من ذلك اعتبار الأضحية عطاء، يكون تقريبا من الأصح - في الغالب من الحالات - الحديث عن استرداد حر.

***

إذا كان يبدو مستحيلا تعريف المقدس إلا من خلال تعارضه مع المدنس، إذا جهلنا طبيعة القوة التي وراءه، يمكننا على الأقل التأكيد على أنه يتجلى في الصور المتقابلة للطاهر والنجس، التي هي عناصره الأساس، فإن الأول يمسي في علاقة مع السماوي والديني، والآخر مع الجهنمي والسحري. هل يتعلق الأمر بنمطين من نفس القوة أو من قوتين مختلفتين؟ لا يمكننا تحديد ذلك؛ بيد أنه مهما كانت التجليات، فإن المقدس

8 وضحنا في مكان آخر أن القرآن للتعبير عن الطهارة يفضل استعمال الجذور: ز ك ى وط ه ر:
(Revue de l'histoire des religions, oct. déc. 1959, pp, 165 sqq.)

بسبب الأخطار التي تنجم عن الاقتراب منه، فإنه محاط بشبكة من الممنوعات. يتكسر المنع بسبب تهور أو لمسة بسيطة، فيحرر إذن قوة لا يختلف تفريغها عن ذلك الذي يحمله تيار كهربائي، ويمكنه أن يكون صاعقا. ليس ثمة أي مؤشر خارجي محتمل لتمييز المقدس عن المدنس، فاعتباره موضوعا للمعتقدات، نُعَرِّفه من خلال الاستعدادات التي نتخذها حُياله، لذلك فإن شيئا معينا يمكنه أن يكون حراما في نظام ديني ما، وقد يكون ذاته حلالا في نظام آخر. لكن القداسة في نفس المعتقد حين تكون ملازمة للموجودات والأشياء، تمثل استقرارا وشكلا من الديمومة، في حين أنها وقتية وعارضة في المدنس المقدس وفي المحظور.

***

نحن بعيدون عن استنفاد كل محتوى المقدس، فهو بدون شك يظهر أساسا في صورة المحظور والممنوع، هنا تكمن - إذا جاز التعبير - نقطة أوجه، لكنه مثل تيار كهربائي، يمكن أن يكون بشدة ضعيفة، فإن استعماله من قبل المدنس يكون إذن خال من الخطر، وتغدو التمائم والبقايا المقدسة شبيهة ببطاريات كهربائية صغيرة، قابلة لتصبح في متناول كل الأيدي. فبين الطاهر والنجس - اللذين يعتبران مصدر خطر بالنسبة إلى المدنس - توجد منطقة وسطى، حيث يجاور المقدس الحياة، ويلجها دون أن تصبح الأشياء والموجودات التي يتجلى فيها موضوعا للفصل. يتعلق الأمر إذن بمقدس مجهول وشائع، لا يتركز بكمية كافية إلى حد تصبح خطيرة، وهذه المثولية خاصة بالنجس أكثر من الطاهر. عمد العرب قبل الإسلام إلى ربط عظم أرنب في أعناق الأطفال لحمايتهم من الجن والعين الشريرة، فـ «حين يكون طفل في خطر الموت، تأخذ الأم أو الجدة رأس أفعى، وسبع إبرٍ مكسرة، سبع حبات شعير...، وقليلا من تراب قبر أحد الأجداد، يجمع الكل في كيس صغير، يوضع على رأس المريض للحيلولة دون موته»[9]. يوضح استقصاء سريع أن كل عناصر التميمة مقدسة، فالحية تشبه الجن، وحبات الشعير محملة بالبركة، وتراب القبر على علاقة بروح الفقيد، والإبر المكسرة ترمز إلى المرض، الذي يعطل إذن بفعل سحر جذاب، والعدد سبعة في الأخير فأل حسن. يحوي الكيس إذن قوة قادرة على إزالة مفعول الأرواح الشريرة التي تسعى إلى إلحاق ضرر بالطفل، لكن استعمال مثل هذه التمائم لا يستدعي أي احتياط، فبعض العناصر تضم قدرا من الطاقة المقدسة في ذاتها، أو تكتسبها من المقدس دون أي ضرر بالمدنس.

تنتمي القداسة الشعبية والبركة[10] إلى هذه المنطقة الوسطى أيضا، وقد رأينا أعلاه أن القداسة تشبه الطهارة، التي تعد أحد أقطاب المقدس، لذلك فهي خطيرة، وكل اتصال بها يستوجب أن يكون مسبوقا بطقس خاص. تجلت هذه القداسة في الجزيرة العربية قبل الإسلام في الأوثان وفي النصب والمعابد، وفي العيون

9 Jaussen (A), Coutumes des Arabes au pays de Moab, P, 382

10 سنعود في موضع آخر إلى هذا المفهوم الذي شكل موضوعا لعمل آخر:

Revue de l'histoire des religions, T, CXLVIII, n° 1, pp, 68-88, 1995.

والأشجار المقدسة، وفي بعض الحيوانات إذا قبلنا بالأطروحة الطوطمية. عمل الإسلام –حسب الملاحظة الصائبة لجيب Pr Gibb على عقلنة المقدس بجعل الله مصدره الوحيد، فأضحت بذلك القداسة وقفا على السماء، وهجرت الأرض إذا جاز القول، إذ خارج الأماكن المقدسة والأشياء النازلة من السماء (قرآن، حجر أسود) لا توجد القداسة بمعناها الدقيق في الأرض. لم يعتبر الرسول قيد حياته قط شخصا مقدسا: كان الرسول، المبعوث من السماء، ولم يكن موضوع شعيرة، والقرب منه لا يستلزم أي طقس. إلا أن التدين الشعبي رفض أن تجرد الأرض من كل قداسة، لذلك انتفض سابقا ضد فكرة موت الرسول، فمن خلال السيرة أُعتقد أن الرسول كان نائما ليس إلا، وأنه سينهض ليأخذ بزمام الأمة، فحتى خليفة المستقبل عمر نفسه ذهب إلى حد التهديد بجلد كل من تجرأ على القول بوفاة الرسول، وكان التدخل القوي لأبي بكر لازما حتى تقبل الأمة الناشئة فكرة وفاة رسولها. لقد انتهى الأمر بذات التدين الشعبي إلى إرجاع القداسة إلى الأرض عبر تنصيب أضرحة لأولياء الله حيثما اتفق، في صورة قبة ورباط ومزار، على الرغم من منع الإسلام السني، الذي يرفض تقديس الأموات. فالولي الذي ورث كل خصائص الجد الأعلى للعرب القدامى، كان مهاب الجانب، ومُتَضَرَّعٌ به، وتقريبا معبود، ولا يجرؤ أحد على عدم توقيره.

إلى جانب هؤلاء الأولياء الذين اعتبروا فعلا أشخاصا مقدسين، وجد آخرون أقل رسمية، ولا يختصون بأية شعيرة، ولكنهم محاطون بإجلال لا يخلو من قداسة، فهؤلاء «الأولياء الشعبيون» حسب تعبير درمنغهم Dermenghem أناس فقراء، وبسيطون، وورعون، ودون أن يدركوا ذلك قادرين على الإتيان بأمور خارقة، يمشون على الماء، وفي ألفة مع الطيور، ولا يتعرضون لخطر الحيوانات المتوحشة. ينبغي التنويه ضمن هؤلاء الأولياء الشعبيين بالمجاذيب، الذين جردتهم الوحدة الروحية مع الله من إمكانياتهم الفكرية، فهم «خضعوا للجذب إلى حد أمسو مجرد عبيد مستسلمين[11]»، لا ينبغي مزجهم مع المجانين، إذ إنه على عكس هؤلاء الذين امتلك جني أرواحهم، فإن المجذوب سلب بالحب الرباني، ورغم رفع القلم عنه، فإن جنونه مع ذلك وديع، ولا يتسبب في أي أذى، كتب درمنغهم: «ولكن في الشك، تمنح الممارسة الشعبية - إراديا وبحرص واحترام - جزء من القداسة لكل كائن مضطرب العقل أو خارق للعادة، وكأن الذهول معكوس بصرامة حيال هذا العالم، وب «الانجذاب» للآخر[12]». فبسيطو العقل هؤلاء لا يحضون بأية شعيرة، ويملكون قوة غامضة، بفضلها ينجزون أشياء خارقة، والمقدس الذي يكمن فيهم، إذن ينتمي لهذه المنطقة الوسطى، وشدته تقريبا لا يعتد بها، إذ يمكنها الاقتراب بلا مساس من المدنس.

ما الذي يصيره المقدس في الختام؟ لملامسة الفكرة التي سمحت التحليلات السابقة بإبرازها، استعرنا صورة للعالم من الفيزياء، حيث قارنا المقدس بحقل ميغناطيسي، ولما كان للمغناطيس قطبان أو مؤشران

11 Dermenghem. E, Le culte des saints dans L'Islam Maghrébien, P 21, Gallimard, Paris, 1954.

12 Dermenghem. E, ibid, p,29.

متقابلان، تتناقص قوة جذبهما كلما اقتربنا نحو المركز، حيث تصبح منعدمة؛ فالمقدس يكون بدوره هو تلك القوة الغامضة، قطبها الموجب من جهة هو الطاهر، والنجس هو السالب من جهة أخرى. تكون القوة في أوجها في الحدين، ويكون كل تماس مع المدنس خطيرا، إنه مجال المحظور والممنوع بامتياز. بيد أنه على غرار المدنس الذي ينشر سلطته على قطعة فولادية، يمكن للمقدس أن يصيب عنصرا مدنسا، يمسي بدوره ممنوعا: إنه المحظور. ففي المركز حيث تتعادل القوة، توجد المنطقة المحايدة، وهي مجال المدنس، إذ تنقص الشدة بين كل قطب والمركز، وتغدو مرنة، هناك تأخذ التمائم ورفات القدسين والبركة موقعها.

إن المقدس - ربما وعلى كل حال - ليس سوى تحويل في المجال الميتافيزيقي لقوة فيزيائية نجهل سرها.

البيبليوغرافيا:

- القرآن الكريم

- Armstrong. H. C, Lord of Arabia, Editions Albatross, Leipzig, 1938.

- Caillois. R., L'homme et le sacré, Leroux, Paris, 1939.

- Dermenghem. E, Le culte des saints dans L'Islam Maghrébien, Gallimard, Paris, 1954.

- Encyclopédie de l'Islam, T.III, P 128.

- Gaudfory-Demombynes, Le pèlerinage à la Mekke, Paris, 1923.

- Jaussen (A), Coutumes des Arabes au pays de Moab,1908.

- Van der Leeuw. G, La religion dans son essence et ses manifestations, Payot, Paris, 1948.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنــون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراســات والأبحــاث

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2017

جميع الحقوق محفوظة © 2017